خطبة صلاة الجمعة 7/ 4/ 2023 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(قصص واقعية في جبر الخواطر)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 9-11].

قال المفسرون: تشير الآيات إلى أنه جبر الخواطر واستئلاف الخلق من أعظم المقاصد في تمام الدين.

أخرج الإمام الترمذي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول بين السجدتين: «**اللهم اغفر لي، وارحمني، واجبرني، واهدني، وارزقني**».

عنوان خطب رمضان: جبر الخواطر، وعنوان خطبة اليوم:

قصص واقعية في جبر الخواطر

أيها الإخوة:

جبر الخاطر مصطلح يعني العطف على المحتاج، والعون للمصاب، والسعي لإدخال السرور على قلبيهما.

وجَبرَ خاطرَه إذا سلّاه وعزّاه وفرّج الغم عنه، وجبر خاطره إذا طيب قلبه وتدارك ما فات من أمره، ومنه قولهم على الله جبر الخواطر.

الحزين محتاج إلى من يجبر خاطره بكلمة حانية، والفقير محتاج إلى من يجبر خاطره بنفقة كافية، والمريض محتاج إلى من يجبر خاطره بدعاء العافية، والمظلوم محتاج إلى من يجبر خاطره بشفاعة وافية، والمسن محتاج إلى من يجبر خاطره بزيارة شافية.

عندما يُقضى الدين عن المدين ينجبر خاطره، وعندما تصل المسافرَ رسالةٌ أو مهاتفةٌ ينجبر خاطره، وعندما تفتح للمهموم باب الأمل وتؤمله بالفرج ينجبر خاطره، وعندما تعين أرملة أو مسكيناً أو يتيماً تُجْبَرُ خواطرهم.

بين يدي قصص واقعية تعرفون أصحابها، أعرض عليكم أربعةً منها، ولها فيكم والحمد لله أمثال وأشباه كثيرة، فأنتم قوم رباكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بذل المعروف وفعل الخير وجبر الخواطر.

1- ماكينة أم جميل:

في الشام؛ عرضت أرملةٌ تكنى بأم جميل ذاتُ ثلاثة أيتام على السيد هيثم مالكِ مشغلِ الخياطة، أن تؤجره ماكينة خياطة كان زوجها المتوفى يعمل عليها في حياته، لتفيد من الأجرة في النفقة على نفسها وأيتامها، ولم يكن هيثم محتاجاً لذلك ولكنه أراد ألا يكسر بخاطرها، فطلب إليها إحضار الماكينة، ففعلت، وزاد زهده بها لما رأى نوعها القديم وعدم صلاحيتها للعمل في مشغله، ولكنه أراد جبر المرأة والأيتام فسألها عن الأجرة المطلوبة فأخبرته فوافق.

ركن الرجل الماكينة في زاوية من زوايا مشغله، بينما كانت المرأة تأتي في كل مطلع شهر لاستلام أجرتها.

ومرت سنوات طويلة على ذلك، وانتقل المشغل من مكان لآخر وتحول إلى معمل كبير وهيثم في كل ذلك يصطحب ماكينة أم جميل معه.

وكم من مرة أخبرته مديرة المعمل أن يستغني عن هذه الماكينة لأنها لا تنفع في شيء وتأخذ حيزاً من المكان ولكنه كان يخبرها بأنه مهتم لأمر الماكينة ويأمرها بتركها في إحدى زوايا المشغل ثم المعمل.

نزلت الأزمة والحرب بالشام وانتقل الناس من مكان لآخر وتضررت المنطقة التي فيها معمل الخياطة وخرج الناس منها، ولم تعد أم جميل تأتي لاستلام الأجرة، وكان هاتفها خارج التغطية في كل مرة يتصلون بها، وسافرت مديرة المعمل مع زوجها إلى بلد أوربي.

لقد دمرت الحرب منطقة المعمل والمعامل المجاورة، ولم يعد السيد هيثم قادراً على الوصول لمعمله، بعد أشهر من سفرها اتصلت به مديرة المعمل السابقة لتقول له إنها رأت رؤيا وتحب أن تقصها عليه. فسألها عن الرؤيا، فقالت: سمعت في رؤيا هاتفاً يقول لي: قولي لهيثم ببركة ماكينة أم جميل حفظنا لك معملك.

وبالفعل عندما استطاع هيثم الوصول إلى معمله تفاجأ بأن معمله لم يصب بمكروه ولم تُفْقَد إبرة من داخله.

إن من مشى بين الناس جابراً للخواطر سلمه الله في جوف المخاطر.

2- حُبب له جبر الخواطر:

كان محمد شاباً موسعاً عليه في الرزق وكان مغرماً بجبر خواطر المكسورين، لقد حبب الله إليه ذلك،

طلب يوماً من أحد الشيوخ أن يذكره كلما مر به مكسور ويرى الشيخ أنه قادر على جبره.

وفي يوم اتصل به الشيخ ليخبره عن شاب قليل ذات اليد تأخر زواجه بسبب حاجته لغرفة نوم، فأخبر محمد الشيخ أنه جاهز لدفع ثمن الغرفة هدية للشاب، فليتزوج متى شاء، وطلب محمد من الشيخ أن يصطحبه معه إن دعاه الشاب يوماً إلى العرس.

فأعلمه الشيخ بأن هذا الشاب وأمثاله لفقر حالهم لا يقيمون حفلة عرس للرجال وإنهم إن فعلوا ذلك ففي بيت جوارهم أو أحد أقاربهم بأبسط التكاليف، فأصر محمد على الذهاب مع الشيخ إن دعاه الشاب فوعده الشيخ بذلك.

وبالفعل أخذ الشاب ثمن غرفة النوم وأعد للزواج عدته، ودعا بعد شهرين الشيخ لحفل عرسه في بيت جيرانهم في حي شعبي فقير في طرف المدينة.

فأتى الشيخ مصطحباً محمداً معه، جلسا في حفلة العرس وسمعا قصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم وألقى الشيخ كلمة العرس وتناول مع محمد الضيافة المتواضعة ثم هنأ العريس ودعا له وودعه.

وفي طريق العودة قال الشيخ لمحمد، لماذا جئت إلى العرس؟

فقال محمد: لقد كنت طيلة جلوسي أتحسس الشرح في صدري والسرور في قلبي كلما ضحك العريس؛ لأن الله أعانني على جبر كسره، وإدخال السرور عليه.

ما عُبِد الله بمثل جبر الخواطر، يقول الإمام سفيان الثوري: ما رأيت عبادة يتقرب بها العبد إلي ربه مثلَ جبر خاطر أخيه المسلم.

3- الشيخ سليم المسوتي رحمه الله:

ذكر أهل الشام عن الشيخ سليم المسوتي رحمه الله، الذي كان من كبار المشايخ المعلّمين الصالحين. كان يوماً في رمضان وكان مجلسه قريباً من باب الدار، وكانت مائدة الإفطار قد أُعِدّت ودنا المغرب، فقرع البابَ فقيرٌ يسأل ويقسم أن أهله في البيت صيام وليس عندهم شيء يؤكَل، ويطلب من الشيخ جبر خاطره وخاطر أهله بطعام، فتلفّت الشيخ فلم يجد حوله أحداً من أهله، فتناول طبقاً وبعض الخبز فوضعها جانباً وقال له: احمل هذا كله.

فحمله الفقير فذهب به.

ودخل النساء فلم يجدن الطعام، فسخطن وصِحْن على الشيخ وتكلّمْنَ كلاماً شديداً، وهو صامت.

وضرب المدفع وأذّن المؤذن من جامع التوبة، فإذا الباب يُقرَع، وإذا بألوان الطعام من الحارّ والبارد والحلو والحامض تدخل عليه! وإذا القصّة أن سعيد باشا شمدين، أحد كبار الوجهاء، كان قد دعا ضيوفاً فلم يحضروا، فأمر بحمل الطعام كله إلى دار الشيخ. فقال الشيخ: أرأيتن مكافأة جبر الخواطر؟

إن الجزاء من جنس العمل، وإن الوصف الذي تعامل به الخلق يعاملك به الحق.

4- ثمنه مائتا دينار ويباع بعشرين ديناراً:

من إحدى صيدليات المدينة كانت امرأة عجوز بثياب رثة تشتري دواءها في كل شهر، كانت المرأة تأخذ الدواء من الصيدلي وتذهب إلى محاسب الصندوق لدفع ثمنه.

إنه شاب بشوش لطيف خلوق، كلما رأته استبشرت، فهي تشترى هذا الدواء من سنين وهذا الشاب يستلم منها ثمنه عشرين ديناراً.

توفي الشاب محاسب الصندوق، وحزن أصدقاؤه في الصيدلية لفقده. ولكنه قضاء الله بعباده وقدره المكتوب عليهم.

عادت العجوز للصيدلية وطلبت دواءها وذهبت للصندوق لتدفع العشرين ديناراً.

لكنها لم تجد المحاسب، وقبل أن تسأل عنه، قال الشاب محاسب الصندوق الجديد: ما هذا يا خالة؟

قالت: هذه عشرين ديناراً ثمن الدواء؟

رد عليها: لكن هذا الدواء ثمنه مائتا دينار؟!

قالت بتعجب: لكنْ من أكثرَ من ثلاث سنين وأنا آخذه بعشرين ديناراً من الشاب الذي كان مكانك، أين هو؟

رد عليها الشاب: توفاه الله يا خالة منذ أيام. رحمه الله.

وبعد مراجعة الدفاتر تبين أن ذلك الشاب كان يسدد عنها مائة وثمانين ديناراً شهرياً من راتبه في الصيدلية. ويأخذ منها العشرين التي ظن أنها تقدر عليها ولا يخبرها بذلك لكيلا تُكْسَر أمامه.

بعد علم صاحب الصيدلة بالأمر قرر استمرار البيع لهذه السيدة بنفس السعر صدقة جارية على روح ذلك الشاب.

أيها الإخوة:

هذه قصص من الواقع فيها جبرٌ للخواطر، ولها أمثال وأمثال، من جبر خواطر الضعفاء وجبر خواطر الأيتام وجبر خواطر الوجهاء وجبر خواطر المؤمنين.

واذكروا أن من مشى بين الناس جابراً للخواطر أدركه الله في جوف المخاطر، ومن فرَّج عن أخيه كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، فالجزاء من جنس العمل.

ولئن كان جبر الخواطر محموداً في الأوقات كلها فإنه في رمضان أشد استحباباً؛ لأنه شهر الصوم وشهر البر وشهر الجِد وشهر التعاون فطيبوا بشهركم نفساً وأرضوا به رباً.

أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ، لَقَدْ أَظَلَّكُمْ شَهْرٌ مَا أَظَلَّ الْمُسْلِمِيْنَ شَهْرٌ قَطُّ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْهُ،... إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُعِدُّ فِيْهِ الْقُوَّةَ لِلْعِبَادَةِ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ لَيُعِدُّ فِيْهِ الغَفَلَات، فَهُوَ غُنْمٌ لِلْمُؤْمِنِ، وَوِزْرٌ عَلَى الْمُنَافِقِ».

والحمد لله رب العالمين